

عبد الله البردوني

والبصيرة النضالية

كان أبو العلاء المعري يرد على الذين يسخرون منه بقوله:

- أحمد الله على العمى فقد كفاني رؤية الثقلاء

أما بشار بن برد فكان يقول:

عميتُ جنينا والذكاء من العمى

فجئتُ عجيب الظن للعلم موئلا

ويبدو أن العميان كانوا من أشد الناس تعلقاً بالحياة.. ومن أكثر الناس دفاعاً عن أنفسهم.. فلو كان منهم شاعر هجاء صار ذا أنياب وأظفار ولو كان ناثراً صار فتاكاً ناقداً لأعدائه.

ووقفنا اليوم مع أشهر شاعر مكفوف معاصر.. هو الشاعر اليمني عبد الله البردوني الذي أسقط كل هجائه على أعداء الوطن وعصبة الظالمين الفاسدين.

ولد البردوني في عام 1929 في قرية البردون باليمن.. وأصيب بالجدري في سن السادسة وصار مكفوفاً منذ صغره.. لكن ذلك لم يثنه عن مواصلة حياته.. فدرس في زمار وانتقل إلى صنعاء وأكمل دراسته الجامعية في كلية دار العلوم وتخرج فيها عام 1953.

وصار البردوني أستاذاً للآداب في المدارس.. ثم مسئولاً عن البرامج في الإذاعة اليمنية.



صدر له إثني عشر ديواناً منها: لعينى أم بلقيس - السفر إلى الأيام
الخضر - كائنات الشوق للأخر - وجوه دخانية في مرايا الليل - زمان بلا
نوعية - ترجمة رملية لأعراس الغبار.

وله أيضاً عدة دراسات أدبية.. وتوفي في 30 أغسطس عام 1999.

والبردوني شاعر يمتلك الجرأة للتعبير عن رأيه.. ومن ثم كان دائم
الاشتباك مع السلطة اليمنية.. حيث سجن في عهد الإمام أحمد حميد
الدين.. وصور ذلك في قصائده.. وعاش جانبا من حياته منفياً مشرداً.

وهذا هو البردوني يجهر برأيه حين يقول:

يمانيون فى المنفى	ومنفيون فى اليمن
جنوبيون فى صنعاء	شاليون فى عدن
خطى أكتوبر انقلبت	حزيرانية الكفن
فمن مستعمر غاز	إلى مستعمر وطنى

هكذا يعبر البردوني عن حاله وحال الملايين من أمثاله الذين يعيشون
غرباء داخل الوطن.. حتى إن حكام بلده صاروا مستعمرين للشعب
اليمني.

ويتكرر الإحساس بالغرابة لديه في قصائد عديدة.. ومنها قصيدته
(يمني في بلاد الآخرين) حيث يقول:

من أين أنا؟.. من يدري	أولست لى جنسية
نسبى رايات حمراً	وفتوحات ذهبية

فلما تستغربني هذي الزمر الخشبية
وأبى - قالوا - يمى أمى - قالوا - يمى
لكن أنستني لوني وفمى أيدى الهمجيه
سنوات جوعى عطشى وقيادات تبعيه

وكان لا بد أن تتنوع الغربة لأنه ينتقل بها (من منفي إلى منفي) على حد
تعبيره.. ويلقى المشاق والصعاب.. ويجاهر بما يشعر به.. وما يضيق به في
هذه التنقلات فيقول:

بلادى من يدى طاغٍ إلى أطفى إلى أجفى

ومن سجن إلى سجن ومن منفى إلى منفى

ومن مستعمر بادٍ إلى مستعمر أخفى

ومن وحش إلى وحشين وهى الناقة العجفا

ثم ينهى قصيدته بقوله:

بلادى فى ديار الغير أو فى دارها لهفى

وحتى فى أراضيها تقاسى غربة المنفى

ليس وحده إذن يحس المنفى ويشعر بثقل البعد عن هويته وإنما وطنه
أيضا غريب على أرضه.. وتلك صورة مستحدثة ربما لم يسبقه أحد إليها من
شعراء العصر.

ويدق على المعنى نفسه فى قصيدته (مواطن بلا وطن) فيقول:



مواطنن بلا وطن لأنه من اليمين
 تباع أرض شعبه وتشتري بلا ثمن
 يبكى إذا سأله من أين أنت.. أنت من
 لأنه من لا هنا ومن مزائد العلن
 واليوم لم تعد له مزارع ولا سكن
 ولا ظلال حائط ولا بقايا من فنن

ونلاحظ أن البردوني يستخدم في شعره الشكل العمودي.. لكنه هنا يلجأ إلى البساطة واختيار البحر المناسب والقافية المناسبة أيضاً.. ولا يحس صعوبة وهو يكتب هذا الشكل.. وهذا أمر عرف به البردوني وتميز عن غيره من شعراء العمود.

ويصف لنا البردوني موقفاً طريفاً.. فقد قبض عليه وجلس أمام المحقق وها هو يحكى لنا هذا اللقاء الغريب في قصيدته (سندباد يماني في مقعد التحقيق) فيقول:

كما شئت فتش أين أخفى حقائبي

أتسألني: من أنت؟.. أعرف واجبي

أجب.. لا تحاول عمرك.. الاسم كاملاً

ثلاثون تقريباً.. (مثنى الشواجبي)

نعم.. أين كنت الأمس.. كنت بمركدي

وجمجمتي في السجن في السوق شاربي



رحلت إذن.. فيما الرحيل.. أظنه
جديدا.. أنا فيه طريقى وصاحبي
جوازا سياحيا حملت؟.. جنازة
حملتُ بجلدى.. فوق أيدي رواسبى
تحديث بالأمس الحكومة.. مجرمٌ
رهنتُ لدى الخباز أمس جواربى
من الكاتب الأدنى إليك؟.. ذكرتهُ
لديه - كما يبدو - كتابى وكاتبى
قرأت - كما يحكون عنك - قصائدًا
مهربةً.. بل كنتُ أولَ هاربٍ
أما كنتَ يوماً طالبا؟.. كنتُ يا أخى
وقد كان أستاذ التلاميذ طالبى
وماذا عن الثوار؟ حانا عرفتهم
نعم.. حاسبوا عنى تغدوا بجانبى
وماذا تحدثتم؟ طلبتُ سجارةً
أظن وكبريتاً.. بدوا من أقاربى
شكونا غلاء الخبز قلنا ستنجلى
ذكرنا قليلاً موت (سعدان ماربي)



لدينا ملفّ عنك.. شكراً لأنكم
تصونون ما أهملته من تجاربي
لقد كنتَ أميهاً ورجلاً وفجأة
ظهرتَ أديباً.. مذبذباً مآربي
خُذوه.. خُذوني لن تزيدوا مرارتي
دعوه.. دعوني.. لن تزيدوا متاعبي

إن قدرة الشاعر هنا على تصوير الحوار بدون أن يشير إلى من يسأل
ومن يجيب قدرة عجيبة حقاً.. وكفى أن يضع علامات الأعراب لنعرف
من السائل ومن المجيب.

وكما نرى فالشاعر هنا يصور جهل السلطة وحنفوانها وإصرارها على
النبش في حياة المحقق معه حتى تستطيع السلطة أن تلصق به التهمة.
وهو موقف كما نرى يصعب كتابته شعراً لكن البردوني - ببساطة
وعفوية - استطاع أن يصوره لنا هكذا.

ولنستمع إليه في قصيدة (شاعر وطنه في الغربة) وهو يلوم الوطن على
سوء الظن به فيقول:

ألأنى يا موطني أتجزأ
قطعاً من هواك في كل رقعة
نعتونى مخرباً أنت تدرى
أنها لن تكون آخر خُدعة

عرفوا أنهم أُدينوا فسَنّوا

للجواسيس تهمة الغير شرعه

عندما تُفسدُ الظروفُ تسمى

كل ذكرى جميلة سوء سمعه

يظلم الزهرُ في الظلام ويبدو

مثل أصفى العيون تحت الأشعة

إن البيت الأخير يجيء بصورة بصرية لا يشعر بها سوى المبصرون.. وهو

هنا يذكرنا ببشار المكفوف الذي قال:

يا منظرًا حسنا رأيتُه في وجه جارية فديته

ويؤكد ذلك قوة ذكاء وبصيرة البردوني واهتمامه بالألوان والأشكال

برغم كف بصره.

ولأن الشاعر ضيف دائم على السجون وأقسام الشرطة فإن طرق

التحقيق معه تتنوع أيضا من سجن إلى سجن ومن قسم إلى قسم.. وها هو

يسوق لنا تحقيقاً آخر في قصيدته (المقبوض عليه ثانيا) يقول فيها:

أتقول لي غلطان؟.. لست بمركبي

من كم تركت.. أتستشير تشككي



هذا اسمك الحركى كم سجلته
ما عدتُ أعرفه نسيتُ تحركى
قل لى.. أتذكرها هنا زلزلة؟
كانت على وجعى تقوم وتتكى
إن قمت أدمى سقفاً رأسى سقفاً
وإذا بركتُ بها أقضت مبركى

وهكذا ينبش المحقق ويدور حول حياة الشاعر حتى يوقعه فى الخطأ
ويدخله السجن.

والنماذج كثيرة فى شعر البردوني التى تحكى عن تجربته المتكررة فى
السجن والنفى والمعتقل إلى جانب قصائده الوطنية المتمردة على الواقع
الذى يعيشه الشاعر.

وهو فى قصائده الوطنية يعشق وطنه.. ويجعله الحبيب والمعشوق
والحلم والأمل جميعاً.. ففي قصيدته (إلا أنا وبلادى) يقول:

تسلياتى كموجعاتى وزادى
مثل جوعى وهجعتى كسهادى
وكئوسى مريرة مثل صحوى
واجتماعى بإخوتى كانفرادى



يا بلادى خذى الربى والسواقى
فى ضلوعى تنهدات شوادى
إنما من أنا وليس بكفى
مدفع والتراب بعض امتدادى
العصافير فى ضلوعى جياع
والدوالى والقمح فى كل وادى
يا ندى.. يا حنان أم الدوالى:
وبرغمى يجيب من لا أنادى
هذه كلها بلادى وفيها
كل شىء إلا أنا وبلادى

الوطن لديه إذن حلم بعيد.. لكنه يجب أن يسعى إليه برغم كل شىء
لأنه موطنه.. وسواقيه فى ضلوعه.. وسلواه فى دروبه.. فلماذا لا يشعر به..
لأن وطنه للأسف ليس بين يديه ولهذا فإنه سيظل مطالباً به طوال عمره.
لقد نال البردوني حظاً واسعاً من الشهرة.. وتقلد أوسمة كثيرة كوسام
الأدب والفنون فى عدن.. وجائزة مهرجان أبى تمام بالموصل فى العراق..
وجائزة شوقي وحافظ فى القاهرة.. وفى عام 1982 أصدرت الأمم المتحدة
عملة فضية عليها صورته لكونه معاقاً تحدى العجز.